الماء

17 يونيو 2017

كن كالماء أيها الصديق!

أن تسليع الماء تسارع في الوقت ذاته: خصخصت إمدادات المياه البلدية، ونمت صناعة المياه المعبأة نموا أسيا. وظلت هذه المسألة معلقة في الهواء: بالماء حقا أساسيا من حقوق الإنسان. كان اعتراف الأمم المتحدة بالماء حقا إنسانيا عام 2010 انتصارا — لكنه انتصار ظل حبرا على ورق. ذلك فواتير المياه. هذه موجة عالمية — لكنها في تركيا لا تزال غير كافية النقاش. هكذا ولدت حملة حقوق المياه. انطلقت في البداية بالمطالبة بأن يعترف الماء بوصفه حقا. تشتعل حروب المياه في بوليفيا، وتركب في جنوب أفريقيا صنابير تعمل بالدفع المسبق، ويخرج الناس في إيرلندا احتجاجا على إدراك كيف يخفي التخطيط العمراني الماء؛ وفي النهاية: الانتماء إلى حركة العدالة المائية الدولية. حين تنقطع المياه في إسطنبول، تتجسد فكرة "أنا كالماء." حياة تنتقل من هندسة المناظر الطبيعية إلى النضال من أجل حقوق المياه. في البداية: اكتشاف جداول إسطنبول وينابيعها؛ في المنتصف: من الماء من مواقع متباينة، بيد أن جميعهم يرون الشيء ذاته: عالما لم يعد فيه للماء أن يجري بحرية. ناشطة تروي مسيرتها الشخصية وتقول: جميعا. أولئك الذين جلسوا حول هذه الطاولة — جيولوجي مائي، وناشطة في حقوق المياه، ورائدة في الحركة البيئية، وثلاثة فنانين — يقتربون المرء لا يستطيع أن يخطو في النهر ذاته مرتين، وتحدث لوكريشيوس عن تحول الماء الأبدي. غير أن الماء ميدان صراع أيضا — ولعله أعرق الميادين الماء بداية كل شيء. قال ذلك طاليس، وجعله بروس لي فلسفة للقتال، وذكرنا هيراقليطس بأن

> "للنهر الحق في الجريان. نتحدث عن حق الناس في الماء — لكننا لا نتحدث عن حق الماء ذاته. لماذا لا يجري جدول بحرية؟"

بما يكفي بعد. يظل النشاط في مجال حقوق المياه مجالا ضيقا داخل الحركة البيئية؛ ومع ذلك، فكل قطرة تتدفق من الصنبور هي قطرة سياسية. استفتاء خصخصة المياه. في اليونان وإيرلندا وسائر أنحاء العالم، يعترض الناس على تسليع الماء. لكن هذا النقاش لم يجد في تركيا قاعدة عريضة ومفهوم باشاماما الإكوادوري — هذه إشارات من جغرافيات بعيدة، لكنها تبحث عن إجابة للسؤال ذاته: هل يمكن امتلاك الماء؟ في إيطاليا، أوقف إلى البحر. في كل مرة نسجنه في الأنابيب والسدود والزجاجات والقنوات، نسد في الحقيقة أوردتنا نحن. إدراج بوليفيا لحقوق الطبيعة في دستورها، حق الماء ليس مفهوما يخص البشر وحدهم؛ للماء حقوقه هو أيضا. حق الجريان بحرية، وإيجاد مساره، والتحرك تحت الأرض، والوصول

الأودية في ثورة

تفكر: "كان يمكنني أن أتدخل حين لا يتمكن الأستاذ أوغوز من الحضور، كان بإمكاني تقديم هذا." هل يمكن أن يصنع شيء كهذا في مقهى القرية؟ إلى المحاكم. لم تكن هذه أهدافا حياتية؛ لكن النضال يأخذ الناس إلى أماكن لم يتوقعوها قط. بعد حين — بعد الندوة الثالثة أو الرابعة — تجد نفسك شركة MNG، وقفت حواء آنا أمام الجرافة. تعلموا القانون، وتعلموا قياس التدفق المستعرض، وحفظوا معدلات الحد الأدنى للتدفق البيئي، وذهبوا ذلك من أجل جدول واحد — بل من أجل نمط حياة بأكمله. يرتدون أقنعة الصقر — رمزا للمقاومة وطريقة للتحدث بوصفهم طبيعة. حين جاءت الأسماك، وتجف الحديقة، ويقل النحل، وينخفض محصول البندق، ويرحل الشباب إلى المدينة. وحين تلقي النساء بأنفسهن أمام الجرافات، لا يفعلن السد الكهرومائي يشبه الانتشار الورمي. لا عضو واحد ينهار، بل المنظومة بأسرها. حين تمد الأنابيب على امتداد جدول، لا يقطع الماء وحده — تختفي الشاي والبندق والتربة عاد بعد سنوات في هيئة مرض. لكن تلك التجربة علمت شيئا آخر أيضا: المسائل البيئية تمر عبر الجسد. الدمار الذي يحدثه امرأة تلقي بنفسها أمام الجرافة. حين سقط إشعاع تشيرنوبيل على البحر الأسود، تعرف جيل كامل على السرطان. السم الخفي الذي تسرب إلى أوراق هذه الترجمة ليست في اتجاه واحد؛ إذ تترجم نساء القرية هن أيضا معرفتهن وأجسادهن وأصواتهن إلى لغة النشاط. وأحيانا تكون الترجمة الأجدى الآخر: لغة أهل القرية — الجدول، والسمك، والبندق، والشاي، والنحلة، والتربة. أن تعمل مترجما بين الطرفين هو ربما أصعب ما في النضال. لكن من إسطنبول وأنقرة — القانون، وتقييم الأثر البيئي، وأحكام المحاكم، وقياسات التدفق المستعرضة، والحد الأدنى لمعدلات التدفق البيئي. في الجانب ساحل البحر الأسود. قصة النضال ضد محطات الطاقة الكهرومائية في أودية أرهافي هي في جوهرها قصة ترجمة. في جانب: لغة الناشطين القادمين يرتفع صوت من

> بيئية. الطابع العالمي للضحية يكتسب أهمية هنا. يجب أن نؤكد حق الجميع في التحدث عن كل شيء — ونرفض رفضا تاما أي استخدام مضاد لذلك."
> "لا يجب أن تكون ضحية شيء ما كي تهتم بقضية

في كل مكان — من أطراف الأصابع إلى الدماغ. سواء جرى الجدول أم لا، سيكون مسموما. الوادي بأكمله، وحوض المياه بأكمله، والحياة بأسرها. فسيبدو النقاش حول السد الكهرومائي بريئا بالمقارنة. لأن السيانيد سينتشر من منابع المنظومة المائية الجوفية. كدواء يحقن في الوريد، سيتدفق

عند رأس الأودية التي تخاض فيها نضالات السد الكهرومائي، تخطط هناك برك للزرنيخ. إذا بدأت عملية تعدين ضخمة بقطر أربعين كيلومترا، وسيرالتبه.

"الأشياء التي تبقى لنا كي ننقذها تتناقص. لهذا أنا في هذه السرعة ربما."

اعتداءات جديدة، ووحدة حقيقية. لكن ألا نعود دائما ونلتقي؟ هذه التجمعات ذاتها هي الإجابة: الجلوس والحديث، والتنفس، والإصغاء لبعضنا بعضا. لسنوات بشكل منفصل ومعزول — حقوق الحيوان، والبيئة، والحق في المدينة — لتلتقي فجأة. الآن يبدو ذلك الطاقة متفرقا، والاهتمام مشتتا، وثمة نشأت الأمور طبيعية وجماعية — شعارات، وكلمات، ونكات، وأفعال تضامن يومية صغيرة. ذلك بالضبط ما جعل غيزي ما كان: التقاء نضالات خيضت في الآونة الأخيرة، ازداد البعد الميداني للنضال صعوبة. ثمة عزلة متنامية. في غيزي، اعتنق الجميع بعضهم بعضا بشكل عفوي؛

تحت الأرض، فوق الأرض

بإغلاق طرق التجارة — أبسط أشكال الاحتجاج على الماء. لكن خلف هذا الاحتجاج يكمن يأس عميق: لا أحد يعرف ما يفعله حين يجف البئر. عام تغوص الآبار أعمق، وتنخفض مستويات المياه. حين يجتمع الجفاف والري المفرط، يدفع الزراعة في السهل إلى حافة الانهيار. يستجيب الفلاحون جيولوجي مائي يتحدث عن ماردين، عن سهل قزلتبه. هناك، تستنزف المياه الجوفية بسرعة. كل

"حيث يوجد الماء، توجد الحياة. وحيث لا يوجد، لا توجد."

الوضوح. لا يجب أن تفكر على المدى القصير فحسب، وبدلا من القول بحسم 'هذا سيؤدي إلى ذاك'، المقصود: لقد انطلقنا في طريق، نحن نفعل شيئا." الذي نديمه بالضبط؟ اعتراف شخص تدرب على الهندسة لافت: "ما تعلمناه كان دائما: تفعل شيئا، يجب أن يكون ثمة ناتج فوري. لكن الحياة ليست بهذا للتملص من الرقابة. نأكل السمك من مضيق البوسفور، دون أن نسأل في أي ماء سبح ذلك السمك. لكن حتى كلمة "الاستدامة" بات يشكك فيها. ما والثلاجات. وفي أيام المطر، تصرف المناطق الصناعية المنظمة نفاياتها الكيميائية دون معالجة مسبقة. لأن المعالجة المسبقة تكلفة، والمطر فرصة أين يذهب ذلك الماء؟ إلى محطات المعالجة — منشآت ضخمة تديرها شركات خاصة لتحقيق الربح. من القنوات تخرج اليخوت، وإطارات الشاحنات، دوائر الهشاشة. وفي النهاية، حين تجف الآبار، يتساوى الجميع — في العطش. في المدينة، صورة مختلفة تماما. تسحب ماء المرحاض، تأخذ دشا. نماذج ديناميكيات الأنظمة تظهر الشيء ذاته: حين يسحب الماء، يتأثر أكثر المعرضين للخطر أولا — صغار الملاك، والحيوانات، والأشجار. ثم تتسع لكن "الانتماء للجميع" لا يعني "لا أحد مسؤول." ثمة نماذج لحوكمة ذاتية تستطيع المجتمعات فيها حماية مصادر مياهها ومشاركتها والمحافظة عليها. تتجسد نظرية أوستروم في الموارد المشتركة هنا: الماء لا ينتمي للدولة ولا للسوق — ينتمي للجميع.

"الماء سيجري، وسيجد طريقه. لا أعتقد أننا بحاجة للتحرك بهذه السرعة."

والإبداعية مع الحركات الاجتماعية — كيف توسعها. التحدث عن هذه الأشياء معا، وتغذية بعضنا بعضا — تبادل أمثلة لم تكن حاضرة هنا من قبل. إلى هنا، وأن يتدفق المعرفة في الاتجاهين. اللغة البصرية كانت دائما في التاريخ أقوى من اللغة المكتوبة أو المنطوقة. كيف تجمع الفن واللغة البصرية إسطنبول بنية تتجاوز حدود الجغرافيا الحضرية. ما الذي يمكن فعله هنا؟ أن يعرف الناس هنا الخارج معرفة أفضل، وأن يأتي الناس من الخارج وحين نقول "محلي"، نميل إلى التفكير في المناطق الريفية — لكن محلينا هو هنا أيضا، هذه المدينة.

لا مال، لا ماء

يجري، وأيها مات منذ أمد بعيد؟ خرائط إسطنبول القديمة تظهر المجاري المائية؛ في الخرائط الجديدة، لا أثر لها. من سيكشف جدولا تحت أرضيا؟ وحولت إلى قنوات صرف صحي. في هذه المدينة نحو ثمانين جدولا معروفا، ولم ينجز عمل شامل عن أي منها. أين تبدأ، وأين تنتهي، وأيها لا يزال من تلك التي قطعت من أجل البناء في إسطنبول. لكن شاغلها الأعمق هو مياه إسطنبول المطمورة: جداول وضعت عليها أغطية، وأخضعت للخرسانة، الاستهلاك الفردي محل العمل الجماعي. قدمت الراحة؛ ولم يسأل عن الثمن. فنانة تحاول عكس هذا التحول. تشتري بمالها الخاص أشجارا وتزرعها بدلا بلاستيكية، خلف علامة تجارية. جرى هذا التحول ببطء شديد حتى لم نلاحظه. تماما كما حل المقلى غير اللاصق محل مقلى النحاس؛ تماما كما حل الثمانينيات، لو دخلت محلا صغيرا وقلت إنك عطشان جدا، كان صاحب المحل يعطيك كوبا من الماء. مجانا. ذلك الماء الآن سلعة تجارية، داخل زجاجة متى بدأنا نشتري الماء؟ في

"عبر تلك الأنابيب وقنوات الصرف حيث كانت الحياة تجري — اخترنا أن نجعلها مسارات لهذه الحضارة البائسة."

قديمة وخرائط مائية؛ أحدهم جامع يملك خرائط تاريخية. سيكون كل جدول من هذه الجداول مرآة: حين ننظر، سنرى الماء؛ وفي الماء، سنرى أنفسنا. "آه نعم، هذا يمكن أن ينجح." ثمانون جدولا في إسطنبول — هذا يمكن أن يكون مشروعا ملموسا. أين تبدأ، وأين تنتهي، وأيها لا يزال حيا؟ ثمة خرائط أيضا كالماء: تجري، وتتحول، وتختفي — لكنها تترك أثرا. نحتاج أن نعمل من أشياء ملموسة. حين يوجد شيء ملموس، يبدأ الناس بالمجيء والقول: والسيولة في الماء، وحقيقة أن السينما قليلا مثل ذلك أيضا — هذه الأشياء مترابطة." يجد المتفرج وقته الخاص داخل ذلك التدفق. وربما السينما لا نريد أن نرى. وفنانة ثالثة تقول إن الماء في طبيعة السينما. أراد أوائل صانعي الأفلام دائما تصوير الماء — التدفق، والخلود، والحركة. "خارج الزمن

قورباغاليديره. لم يعد الجدول يجري؛ إنه يعفن. تريد تعريض الناس بتلك الرائحة، بذلك المنظر. الماء يرفع مرآة لنا؛ حين ننظر فيه، نرى أنفسنا — لكننا فنانة أخرى تقيم منشأة تسمى "مروس" (معرض) على ضفة جدول

الحقيقة والمفهوم والتولوم

كل شيء كان يتحول، ويستخدم، ويحرق، ويصبح سمادا. الآن يصل كل شيء جاهزا، في عبوات بلاستيكية. وتلك البلاستيك تذهب إلى الجدول. ويأتي بائع الفاكهة، وتصل السوبرماركت حتى القرية. الرأسمالية العالمية تجدك حتى في قمة الجبل. حين كنا صغارا، لم يكن ثمة شيء اسمه القمامة؛ مرتين؛ في المرة الثالثة لم يأت أحد. لأنه لم تعد ثمة بيض في القرية؛ يشترى من مركز البلدة. تغادر سيارة كل خمس عشرة دقيقة، ويأتي بائع البطيخ، — أعلن في مسجد القرية، ونظم حدث، وانضم أطفال، وجمعت شاحنة صغيرة من القمامة. لكن العودة في العام التالي وجدت الوضع ذاته. أنجز من المدينة هي الآن ما يجده الجميع "مثيرا للاهتمام جدا." مثيرة للاهتمام كمعرفة؛ بعيدة كممارسة. جربوا المشي على امتداد جدول وجمع القمامة الجميع. لمس التربة، وزراعة الطعام بنفسك، والعيش مع مواد طبيعية. لكن لا يزال هذا كنوستالجيا، كفضول؛ لا كممارسة حياة فعلية. الأشياء المطرودة النحاس، والعمل الجماعي — كلها عدت علامات "على التخلف." الآن ثمة انعكاس مثير للاهتمام: الأشياء المطرودة من المدينة باتت تستقطب انتباه في تركيا كانت طويلة لدرجة أن الناس أصبحوا غرباء عن معرفتهم الخاصة. تحولت أشياء القرية إلى أشياء مثار للخزي. الخضرة، والتربة، وأواني دون تسوق. ثمة الكثير لتتعلمه منهم. "سنذهب إلى هناك، وسنعيش ما وصفت. لن نتوقع نتائج على المدى القصير." لكن عملية الاستخفاف بالفلاح بتلك الجغرافيا. السؤال هو أن تمنع تلك العلاقة من أن تكون في اتجاه واحد. هناك أناس بنوا بيوتا في القرية، ويزرعون كل شيء بأنفسهم، ويعيشون — هذه ليست تجارب سياحية بل أرضية الإنتاج المشترك. تملك الطريق، وإصلاح الطاحونة. ثمة دوافع قوية بالفعل لدى الناس الذين تربطهم علاقة يذهب ليقدم شيئا بل ليفهم التجربة هناك، ويعمل إلى جانبها. رؤية طاحونة القرية، والمشاركة في جمع البندق الجماعي، والاستماع إلى الأغاني مساء والموسيقيين وأهل المسرح إلى القرى، وتنظيم مهرجانات إيكولوجية. لكن في الجانب الآخر، "الإنتاج المشترك" أدق من "الجلب." الفنان الزائر لا تنهل من الجذر ذاته: العيش داخل الطبيعة، والإنتاج بجانبها، والتعلم منها. إذن، كيف نحمل هذه المعرفة؟ في جانب فكرة "الجلب" — أخذ الفنانين أربعة آلاف سنة هناك. الهمشنيون، واللازيون، والمتحدثون بالرومايكا. العلاقات التي أقامها كل منهم مع الماء والتربة والنباتات مختلفة — لكن جميعها تتوارثها الأجيال: "اعتن بالعنكبوت — هؤلاء الأطفال سيأكلونني." هذه ليست أشياء تتعلم من الوثائقيات؛ بل أشياء تعرف بالعيش. ثمة ثقافة عمرها صلب، وحيث يلتقي بالساق طري — وارتداؤها حول الرقبة. مراقبة عش العنكبوت ساعة كاملة، ورؤية الصغار يأكلون الأم، وتحويل هذا إلى عبارة مختبئة في الطبيعة وعلى وشك الضياع. صنع عقد من خيوط تخرج من جذر نبات الإراتي. تهجير الفراولة البرية على سيقانها — الطرف الجذري بناء علاقة من هناك: "كان شيئا تصارعنا معه ولم نتمكن من الخروج منه. لهذا التقت الحقيقة والمفهوم والتولوم لدينا." المعرفة الموجودة في القرى حتى تنضج. كلا الأمرين — الذهاب إلى مكان ما بوصفك غريبا، وتعريف حياتك من خلال ممارسة أخرى — فن، أو أكاديميا، أو نشاط — ومحاولة وقتا كافيا ليفسر حقيقة ما، يستسلم لما سمعه من قبل. لهذا بالضبط، يجب أن تضغط الحقيقة بإحكام في المفهوم، وتدفنها في الأرض، وتنتظر نملأ به بإحكام جلد الماعز، التولوم، بأكبر قدر ممكن. ثم ندفنه في الأرض. بعد ثلاثة أشهر، يصبح جبنة رائعة." هذه استعارة: إذا لم ينتظر الأكاديمي أكثر اللحظات غير المتوقعة في هذا الحوار هي حين يذكر صنع الجبن. يصف أحدهم جبنة تولوم: "أولا نصفي الجبن عبر قماش الموسلين. ثم نضغطه، ربما

> ذلك المكان شهدوا بالفعل تطورات في الطبيعة واستخلصوا منها استنتاجات. جاءت منهم كلمات. هل تتخيل؟ ثمة أشياء كثيرة كهذه أدونها، تتراكم لدي." "أهل

الانتماء

أيضا طاقة استيعاب. تخرج من محطات المعالجة أسرة، وأغطية مراحيض، وخزانات. قوة صياغة السياسات لدى البلديات هائلة؛ العمل معها ضرورة. يرمي سكان المدينة قمامتهم في الجدول، يفعل أهل القرية الشيء ذاته — ظنا منهم أن "الماء سيحملها." لكن قمامتنا كبرت الآن حتى صار للماء هو نماذج يحتذى بها، شاء الناس أم أبوا. في جميع المسلسلات، وفي جميع الأفلام، وفي كل مكان، يعرض نمط الحياة الحضرية بوصفه نموذجا. وحين البيت؛ إن لم تفرز نفاياتك، لا تجمع. العقوبات وتنمية الوعي يسيران جنبا إلى جنب. وهنا، تطفو حملات التوعية في الهواء، وتغيب الإنفاذ. المدن الكبرى الحداثة، أنا أعيش حياة أقرب بكثير إلى حياتي في أرزينجان." كلما كنا أنظف، كلما تلوثنا أكثر — وكلما أكثرنا تلويثا. هناك أربعة صناديق منفصلة في إزعاج موائل المخلوقات. إذا لم تفصل نفاياتك، لا تجمع. ضفاف الأنهار عامة؛ الحدائق وملاعب الرياضة. "رغم أنه يجب أن يكون أكثر تقدما من حيث منظورا آخر. هناك، يعيش المرء إلى جانب الذباب وشباك العنكبوت والحشرات. حتى رش مبيدات الحشرات الجماعي لا ينجز في الحديقة؛ لا يريدون إنسان. لا أستطيع. لكن في القرية، ثمة مكان لم يلوث بعد، يمكن حمايته. والأهم: يؤثر مباشرة في حياة أولئك الناس." صوت ينضم من لندن يقدم في المكان الذي ولد فيه المرء، يشكل الماء الحياة مباشرة. لا يمكن حل هذا التوتر، لكن يسمى: الانتماء. "أنا شخص صغير؛ هنا أكثر من عشرين مليون لكل منها ممارساتها الخاصة، لكن لا يستطيع أي منها نسج رابط الانتماء ذاك. حين تنقطع العلاقة بالماء، تنقطع معها الدافعية لحمايته. لكن في القرية، العيش في ثلاث مدن كبرى والشعور بعدم الانتماء لأي منها. إزمير، وأنقرة، وإسطنبول —

> "هذه نقائل سرطانية. نحتاج أن نركز أينما كان المرض الأصلي. لا يهم أين نكون."

يأتي ناس، هل تصدقون كم هم فضوليون، كم اتضح أن هذا ثمين" — ذلك أيضا خطوة. الماء سيجري، وسيجد طريقه. ونحن أيضا سندعه يجري. حين نذهب إلى هناك، نكون نتسبب في ضرر؛ يلزم النظر في الأمر من تلك الزاوية قليلا. لكن دون أن نذهب، وأن يقول أهل ذلك المكان — "انظروا،

لبعضنا، أو اللقاء مجددا، سواء في إسطنبول، أو على ساحل البحر الأسود، أو في ماردين. تبادل المعرفة والخبرة — على صلة بالفن تحديدا، وككل. ربما وأن نتنفس معا. بدلا من انتظار نتائج فورية، أن نثق بالمسار. ألا نفكر على المدى القصير. لقد انطلقنا في طريق — ربما تناول طعام معا، أو الكتابة التي ستنبثق منها — كالجذور الصغيرة للزنجبيل، كل منها يجد طريقه. تماما كالماء يجد طريقه. المهم أن نلتقي، وأن نتعرف على بعضنا بعضا، معا، متغيرة، لا تثقل على بعضها بعضا، لكنها تنشأ من الجذر ذاته. هذه المحادثات بوصفها الجذر الرئيسي؛ والمشاريع والندوات والمنشورات واللقاءات وربما تجد الاستعارة الجذرية لـ birbuçuk — الزنجبيل — معناها هنا. لقاءات ليس عليها إلزام بالبقاء